



خطبة صلاة الجمعة 12 / 11 / 2021 للشيخ الطبيب محمد خير الشعال, في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكى

(عزة النفس عند النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف نتحلى بها)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبي اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيائي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

وقال سبحانه مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].
أخرج الإمام الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ مِنْ أَحْسَنِكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا».

وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» وفي رواية البزار «مكارم الأخلاق».

مع مطلع شهر ربيع الأول شهر ولادة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بدأنا سلسلة جديدة من الخطب تناسب الزمان والاحتياج عنوانها: (أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف نتحلى بها). وهذه الخطبة السادسة وعنوانها:

عزة النفس عند النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف نتحلى بها.

أيها الإخوة:

سبق أنّ الخلق هو اسم لصورة الإنسان الباطنة، كما أنّ الخَلقة اسم لصورته الظاهرة. (لسان العرب).

والأخلاق تكون فطرية وتكون مكتسبة، فمن فطره الله على خلق حسن فليحمد الله ومن لم يجده في نفسه فليتدرب على اكتسابه، وهذا الواجب العملي الأهم على مستمع هذه السلسلة.

أيها الإخوة:

عزة النفس والإباء والكرامة من أبرز الخلال التي نادى الإسلام بها، وتعهد نماءها.

يصبح المؤذن خمس مرات كل يوم منادياً بتكبير الله وحده، ويكبّر المسلم في حركات الصلاة كلها، ليوقن يقيناً لا يهتز أنّ كل متكبر بعد الله فهو صغير، وليرد هذا النداء الناس إلى الصواب كلما أطاشتهم الدنيا، ووضعتهم شهواتها.

ويقول المسلم في كل ركوع في صلاته "سبحان ربي العظيم" وفي كل سجود "سبحان ربي الأعلى"، فتتشرب روحه أفراد رب العالمين بالعظمة والعلو.

إنّ عزة النفس تأبى على المرء أن يتّضع في مكان، أو يكون ذنباً لإنسان، أو يذل لصاحب جاه أو مال أو سلطان.

إنّ عزة النفس تدعو الإنسان للترفع عن السقوط في وحل المغريات أو الخضوع لذل الشهوات.

إن عزة النفس تدع المؤمن متواضعاً للخلق خاضعاً للحق ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ﴾ [فاطر: 10].

وإذا كان حديث اليوم عن عزة النفس عند النبي صلى الله عليه وسلم وكيف تتحلى بها، فإليكم هذه المواقف من السيرة العطرة.

1- جاء في سيرة ابن هشام: أنّ بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنّ امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعمدها، فلما قامت انكشفت سوءاتها، فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودي فقتله، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون وسار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بجنده حتى حاصرهم ثم أجلاهم عن المدينة.

إنها عزة النفس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين تأبى أن تُدَنَسَ الأعراض أو تُنْتَهَكَ الحرمات.

2- أخرج أبو داود بإسناده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً من الأنصار أتى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله فقال: "أما في بيتك شيء؟" قال: بلى جِلس (كساء غليظ) نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء. قال: "اثني بهما" فأتاه بهما فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال: "من يشتري هذين؟"

قال رجل: أنا آخذهما بدرهم.

قال: "من يزيد على درهم؟". مرتين أو ثلاثاً.

قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين. فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري وقال: "اشتر بأحدهما طعاماً فانبذهُ إلى أهلِكَ واشتر بالآخر قَدْوماً فأتني به". فأتاه به فشده فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عوداً بيده ثم قال له: "اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوماً". فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا خير لك من أن تجيء المسألة نُكْتَةً في وجهك يوم القيامة".

إنه تعليم النبي صلى الله عليه وسلم من حوله عزة النفس التي تأبى أن يُراق ماء الوجه على الأرض بمسألة الناس.

بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوماً لأصحابه **«من يتكفل لي ألا يسأل الناس شيئاً وأتكفل له بالجنة؟ فقال ثوبان مولى رسول الله: أنا، فكان ثوبان لا يسأل أحداً شيئاً»** [أبو داود] قالت كتب التراجم: فكان ثوبان تسقط منه العصا، أو السوط فما يسأل أحداً أن يناوله إياه، حتى ينزل فيأخذه.

3- أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن سخرية قال: قام رجل يثني على بعض الخلفاء، فجعل المقداد رضي الله عنه يحثي عليه التراب، فقال له: ما شأنك؟ فقال: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحثو في وجوه المدّاحين التراب».

والمراد المبالغون في المدح أو الكاذبون فيه تملقاً وتتوصلاً للعطايا، أو هم الذين اتخذوا مدح الناس عادة، وجعلوه بضاعة يتأكلون به من الممدوح.

وعزة النفس تأبى ذلك.

فعزة النفس حُلِقَ النبي صلى الله عليه وسلم، وعليها ربى أصحابه وأتباعه، والمتوقع أن تكون أن صفة كل مؤمن.

والعزة تعني نفاسة القدر وأن يرتفع الإنسان عن كل ما يقلل من قيمته.

تزوَّج شاب امرأة ثرية طامعاً في مالها وفيما ورثته من أبيها من عقارات فما كان منها بعد أن تكشفت لها نواياه إلا أن طردته من بيتها واستردلته!

والعزة تعني نفاسة القدر وأن يرتفع الإنسان عن كل ما يقلل من قيمته، ولا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه.

يتضعض رجلٌ لغني يمازحه ويضاحكه لأجل ما عنده من مال، وتمر أيامه على هذا الحال، والغني يصدق عليه مما عنده ويطلب منه مزيداً من الضعة بين يديه، ولما اعتذر الرجل يوماً عن المشاركة في مجلس دعاه إليه الغني، صرخ فيه الغني أنه هو الذي صنعه وأعلاه وأنه لا ينبغي لمثله أن يرفض أمر مثله. العزة تعني نفاسة القدر وأن يرتفع الإنسان عن كل ما يقلل من قيمته، ولا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه.

يخطب شاب من عائلة ابنتهم فيعتذرون إليه، ويعاود سؤلهم الموافقة فيرفضون، فيوسط من يشفع له عندهم فيأبون، وها هو اليوم يبحث عن واسطة جديدة ليقبلوا به زوجاً لابنتهم! العزة تعني نفاسة القدر وأن يرتفع الإنسان عن كل ما يقلل من قيمته، ولا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه.

له رتبة علمية ووظيفية عالية لكنه يرضى أن يبيع نفسه برشوة تعد آلاف الليرات، حتى شاع بين من يعرفه ومن لا يعرفه أن ثمن فلان كذا وكذا من الليرات. العزة تعني نفاسة القدر وأن يرتفع الإنسان عن كل ما يقلل من قيمته، ولا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه.

يسجل رجل اسمه واسم عائلته في جمعية خيرية ويتظاهر بمظهر الحاجة والافتقار وقد آتاه الله من المال ما يكفيه ويكفي من يعول!

العزة تعني نفاسة القدر وأن يرتفع الإنسان عن كل ما يقلل من قيمته، ولا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه.

جاوز الثلاثين من العمر ولا يزال يأخذ مصروفه الشهري من والده ويطالب أباه بالمزيد ويحاسب والده إن تأخر عطاؤه شهراً من الشهور، وقد جاءني يريد مقاضاة والده لأنه لا يهبه شيئاً من عقاراته. العزة تعني نفاسة القدر وأن يرتفع الإنسان عن كل ما يقلل من قيمته، ولا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه.

لما نزلت الأزمة بالبلد سكن في بيت والد زوجته ولا يزال على تلك الحال منذ عشر سنين، يسكن داره ويأكل على مائدته، وها هو بالأمس يطلب من زوجته سؤال أبيها أن يرمم له بيته المهدم، إن كان منزعجاً من بقائهم عنده! العزة تعني نفاسة القدر وأن يرتفع الإنسان عن كل ما يقلل من قيمته، ولا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه.

يحمل رجل سبعيني حاجات منزله بكلتا يديه متثاقلاً في مشيته، وتقف امرأة ستينية على دور أفران الخبز، وابنهما الشاب جالس في البيت يتابع برامج الواتس والفيس. العزة تعني نفاسة القدر وأن يرتفع الإنسان عن كل ما يقلل من قيمته، ولا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه.

هذه المواقف وأشباهها تنبئك عن فضل عزة النفس وشؤم دناءتها وخستها.

ختاماً: كيف يتحلى المرء بعزة النفس؟

الجواب: عزة النفس من الأخلاق الفطرية، فمن رحمة الله وكمال فضله أن خلق الناس جميعاً وفي ضمائرهم عزة وفي جنباتهم كرامة.

ألم تروا إلى الطفل الصغير يبكي إذا نهرتموه، ويلتفت عنكم إذا زجرتموه، إن ما فُطر عليه من عزة النفس يأبى عليه أن يرضى بالمهانة ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: 70].

وما على الإنسان إلا أن يصون هذه العزة ويجتنب أسباب الذلة وتصان عزة النفس بالأمور الآتية:

1- الإحسان والسعي لمعالي الأمور وترك سفاسفها:

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ﴾ [يونس: 26].

2- ترك المعاصي إذ فيها ذلة النفس ودناءتها:

وقد أبى الله إلا أن يذل من عصاه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: 27].

3- الثقة بموعود الله في الآجال الأموال:

قال الشيخ محمد الغزالي المعاصر: (إنَّ الناس يذلون أنفسهم، يقبلون الدنية في دينهم ودنياهم، لواحد من أمرين: إما أن يصابوا في أرزاقهم، أو في آجالهم، والغريب أنَّ الله قطع سلطان البشر على الآجال والأرزاق جميعاً، فليس لأحد إليهما من سبيل: فالناس في الحقيقة يستذلهم وهم نشأ من أنفس مريضة بالحرص على الحياة والخوف على القوت) بهذه الثلاثة يصون المرء عزة نفسه.

أيها الإخوة:

في شهر ربيع أكثروا من الصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه من صلى عليه صلى عليه ومن سلّم عليه سلم عليه، وتدارسوا مع من حولكم حديثه صلى الله عليه وسلم وأخلاقه، وسنته وسيرته، ليكون النبي حاضراً فينا وتكون سنته ماثلة بيننا.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

والحمد لله رب العالمين